الايجاز

كانت العرب من أكثر الأمم ولوعاً بالايجاز أكثر من التطويل ، وكان الموجز يُبين عن براعة أكثر من المطيل ، ذلك لأن الكلام الموجز يبقي أثراً في النفوس أكثر من الكلام المطول ، والموجزات تتناقل ولا يكون ذلك للكلام الذي تكثر ألفاظه وتقل معانيه . والكلام المشبع بالمعاني بقليل من الألفاظ يدل على براعة الكاتب والشاعر والخطيب والمحاضر . وكان المعجبون بالايجاز من الكلام أكثر عدداً ممن لا يرضيهم الا التطويل ، واذا كان من يستحسنون الاقلال من الألفاظ تسعين في المئة ، فالذين يجيزون الاكثار لا يتجاوزون العشرة في المئة على ما يستفاد مما دوّنه علماء هذا الشأن . وأكثر من أعجبهم التطويل جاءوا في قرون الانحطاط من القرن الخامس الى الثالث عشر .

طبيعة العرب في الجاهلية والاسلام ايجاز القول أبداً ، يقصدون بذلك ان يعلق القول بالأذهان ، ويسهل نقله من صدر الى صدر ، وتعيه الذاكرة فلا ينسي بعضه بعضاً . وما ظهرت طريقة التطويل في الأمة العربية الا بدخول صنوف الأعاجم في الدولة ، حملوه الى العرب في جملة ما حملوا من مصطلحاتهم ، ومنها ما حملوه من الأمور التي ألصقوها بالدين وهي ليست منه .

وكأن بعض الدول من خلفاء بني العباس وعلى رأسهم المأمون ، أدركوا ما يحمل التطويل من الفساد في اللغة ، فأخذوا يحرصون على الايجاز فيما يصدر عنهم ويصدر اليهم من الكتب ، وكانت الصدارة في رجالهم لمن يجود في هذا الضرب من الكتابة ، وما عهد أن صدر من دواوينهم رسائل تزيد ألفاظها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

عن معانيها ، وما كان ذلك الا في أواخر القرن الثالث وكثر في الدولة البويهية والدولة الفاطمية ودولة المماليك . نجد نموذجات من ذلك في صبح الأعشى للقلقشندي وغيره من الكتب التي ألفت قبله وبعده في هذا المعنى . فحق القول ان المؤلفات المطولة كانت على الأكثر ابنة العصور الأخيرة ، بوم كثر الجماعون والسارقون في المؤلفين وضعفت فيهم ملكة الانشاء وملكة التأليف معاً .

وما أبان التطويل قط عن براعة صاحبه بقدر ما أبان الايجاز ، والتطويل صناعة يراد بها التهويل والتمويه ، وما جوزه البيانيون الا في « الكتب الصادرة عن السلاطين في الأمور الجسيمة والفتوح الجليلة وتفخيم النعم الحادثة والترغيب في الطاعة والنهي عن المعصية ، وسبيلها أن تكون مشبعة تملأ الصدور وتأخذ بمجامع القلوب » .

الايجاز طبيعة وفطرة يستظهر ويروى وتقتضيه حالة عصرنا أكثر من العصور السابقة ، لأن حضارتنا متشعبة الطرق والمناحي فيقتضينا الوقت أن لا نتزيد في كتبنا ورسائلنا وخطبنا وتآليفنا . كثرت الموضوعات واتسعت دائرة العلوم ومطالب الحياة وصار للوقت ثمن ما كان له فيما غبر من الأزمان .

ولا يلائمنا من صيغ القول الا ما كان في طبيعتنا وطبيعة زماننا ، فنجعل كتاباتنا كالتوقيعات كما وصى بذلك شيخ الكتاب جعفر بن يحيى منذ القرن الثاني ، واذ بطلت التوقيعات من دواوين الدول العربية نجعل من البرقيات التي نتراسل بها في البرق نموذجات ننسج على منوالها في كل ما نكتبه وننظمه ونخطب به ، فنتوخى الايجاز في خطبنا في المجالس النيابية والأندية الأدبية وعلى المنابر وفي المعابد والمساجد ، نقلد فيها ما أثر عن بلغائنا في القرون الثلاثة الأولى قبل أن تتغلغل روح الدخلاء فينا .

وكان حكيماً يعرف مقدار ما تتحمل النفوس من الاستماع ، من قضى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بألا تتجاوز مدة الحديث في المذياع أكثر من خمس عشرة دقيقة لأن هذا القدر من الوقت يمكن للمتحدث أن يجمع فيه أفكاره ، ويقتصر في حديثه على اللباب ويطرح منه القشور ، فلا يدخل الملل على المستمعين حتى لا تضيع بذلك الفائدة المرجوة . وهكذا يقال في المدة المسموح بها للأغاني والأناشيد والأنباء التي تذاع في المذياع .

قال أحد كتاب الغرب المعاصرين لرصيف له : أراني عندما أهمُّ بكتابة مقالة أطيل الكلام ، فاذا لم يكن لديَّ ما أقوله أكتب مائتي سطر وبالعكس اذا وجب عليَّ أن أكتب مقالة تشبعت روحي بموضوعها فاني أكتبها في مئة سطر .

وروى العسكري في الصناعتين عن أصحاب الايجاز قولهمْ : الايجاز قصور البلاغة على الحقيقة ، وما تجاوز مقدار الحاجة فهو فضل داخل في باب الهذر والخطل ، وهما من أعظم أدواء الكلام ، وفيها دلالة على بلادة صاحب الصناعة . قالوا اذا طال الكلام عرضت له أسباب التكلف ، ولا خير في شيء يأتي به التكلف . وقيل لبعضهم ما البلاغة ؟ فقال : الايجاز . قيل وما الايجاز ؟ قال : حذف الفضول ، وتقريب البعيد . قالوا : لا تنفق كلتين اذا كفتك كلمة .

(١) كتب عبد الحميد الكاتب موصياً بشخص : « حق موصل كتابي اليك كحقه عليَّ اذ جعله موضعاً لأمله ورآني أهلاً لحاجته ، وقد أنجزت حاجته فصدق أمله » .

(٢) كتب ابو جعفر المنصور الى عامله على حمص وقد جاء منه كتاب فيه خطأ : « استبدل بكاتبك والا استبدل بك » .

(٣) كتب عمر بن عبد العزيز الى يزيد بن عبد الملك : « اما بعد فاتق يا يزيد الصرعة بعد الغفلة ، حين لا تقال العثرة ، ولا تقدر على الرجعة ، انك تترك ما تترك لمن لا يحمدك ، وتصير الى من لا يعذرك والسلام » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

(٤) وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز يستأذنه في تحصين مدينته فكتب اليه : « حصنها بالعدل ونقِّ طرقها من الظلم » .

(٥) كتب ابن المقفع تعزية : « أعظم الله على المصيبة أجرك ، وأحسن على جليل الرزء نوالك ، وعجل لك الخلف فيه ، وذخر لك الثواب عليه » .

(٦) وكتب أيضاً في تعزية عن بنت : « لا ينقص الله عددك ، ولا يزع عنك نعمته التي ألبسك ، وأحسن العوض لك ، وجعل الخلف لك خيراً مما رزأك ، وما أعطاك خيراً مما قبض منك » .

(٧) وله تعزية عن ابنة : « جدد الله لك من هبته ما يكون خلفاً لك مما رُزئته ، وعوضاً من المصيبة به ، ورزقك من الثواب عليه أضعاف ما رزأك به منها ، فما أقلَّ كثير الدنيا في قليل الآخرة ، مع فناء هذه ودوام تلك » .

(٨) وتعزية له أيضاً : « أعظم الله أجرك في كل مصيبة ، وأوزعك الشكر له على كل نعمة ، اعرف لله حقه بما أمر به من الصبر ، تظفر بما وعد عظيم الأجر » .

(٩) كتب الحجاج الى قتيبة بن مسلم : « اني قد نظرت في سني فاذا أنا ابن ثلاث وخمسين وأنا وأنت لِدَةُ عام ، وان امرأً قد سار الى منهل خمسين سنة لقمين أن يَرِده والسلام » .

فنظمه أبو محمد عبد الله بن أيوب التميمي فقال :

« اذا ذهب القرن الذي أنت فيهم وخلفت في قرن فأنت غريب

وان امرأً قد سار خمسين حجة الى منهل من ورده لقريب »

(١٠) كتب محمد بن سليمان لأحدهم رقعة : « صر الينا ننظر في أمرك ، ونبلغ فيه محبتك ، فاني أرعى لك متقدم حرمتك ، ووكيد أسبابك ان شاء الله » .

(١١) وفد من وجوه أهل الغوطة على المنصور وفد كانوا حاربوه ووالوا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

عبد الله بن علي ، فقام عدة منهم فتكلموا ، ثم قام الجرشي فتكلم فقال : « يا أمير المؤمنين انا لسنا وفد مباهاة ، ولكننا وفد توبة ، ابتلينا بفتنة استفزت كريمنا ، واستخفت حليمنا ، فنحن بما قدمنا معترفون ، وبما سلف منا معتذرون ، فان تُعاقبنا فبما أجرمنا ، وان تعفُ وتحسن فطالما أحسنت لمن أساء » . فقال المنصور للوفد : خطيبكم الجرشي .

(١٢) كتب عمرو بن مسعدة عن المأمون الى عامل كتاباً استطاله ، فأخذ المأمون بيده وكتب : « قد كثر شاكوك فاما عدلت واما اعتزلت » .

(١٣) كتب بعض ولاة الأجناد الى المأمون ان الجند شغبوا ونهبوا فكتب اليه : « لو عدلت لم يشغبوا ، ولو وفيت لم ينهبوا » وعزله عنهم وأدرّ عليهم أرزاقهم .

(١٤) كتب عمرو بن مسعدة الى المأمون : « كتابي الى أمير المؤمنين ومن قِبَلي من قواده ورؤساء أجناده في الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون طاعة جند تأخرت أرزاقهم وانقياد كفاة تراخت أعطياتهم ، فاختلت لذلك أحوالهم ، والتاثت معه أمورهم » فأمر لهم برزق ثمانية أشهر ، وقال لأحمد بن يوسف : لله در عمرو ما أبلغه ، ألا ترى الى ادماجه المسألة في الاخبار ، واعفائه سلطانه عن الاكثار .

(١٥) كثر طلاب الصدقات بباب المأمون مرة فكتب اليه أحمد بن يوسف : « داعي نداك يا أمير المؤمنين ومنادي جدواك جمعا الوفود ببابك يرجون نوالك المعهود ، فمنهم من يمتّ بحرمة ، ومنهم من يدلّ بخدمة ، قد أجحف بهم المقام ، وطالت عليهم الأيام ، فان رأى أمير المؤمنين ان ينعشهم بسيبه ، ويحقق حسن ظنهم بطوله فعل ان شاء الله » .

(١٦) كتب عمرو بن مسعدة الى بعض أصحابه في شخص يعزّ عليه : « أما بعد فموصل كتابي اليك سالم والسلام » . أراد قول الشاعر :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يديرونني عن سالم وأديرهم وجلدة بين العين والأنف سالم

أي يحلُّ مني هذا المحل .

(١٧) كتب سهل بن هرون الى صديق له أبلَّ من ضعف : « بلغني خبر الفترة في الامها وانحسارها ، والشكاة في حلولها وارتحالها ، فكاد يشغل القلق بأوله عن السكون لآخره ، وتذهل الحيرة في ابتدائه عن المسرة في انتهائه ، وكان تغيري في الحالين بقدرهما ارتياعاً للأولى وارتياحاً للأخرى » .

(١٨) سعى علي بن عيسى بن ماهان الى الرشيد بالفضل بن يحيى فرمى بكتابه الى جعفر وقال : اجبه ، فكتب على ظهره : « حفظك الله يا أخي ، وحبب اليك الوفاء فقد أبغضته ، وبغّض اليك الغدر فقد أحببته ، ان حسن الظن بالأيام داعيةُ الغِيَر والله المستعان » .

(١٩) أمر الواثق ابن الزيات ان يتلطف بعبد الله بن طاهر ، ويعلمه انه صرفه عن امر الجزائر والعواصم وفوض ذلك لابن عمه اسحق بن ابراهيم ، فكتب : « أما بعد فان أمير المؤمنين ، رأى أن يخلع ما في يمينك من أمر الجزائر والعواصم فيجعله في شمالك ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

(٢٠) كتب العتّابي فكاد أن يخلَّ بالمعنى من شدة الاختصار فكتب : « حامل كتابي اليك أنا فكن له أنا والسلام » .

(٢١) كتب طاهر للمأمون لما قتل علي بن عيسى : « بسم الله الرحمن الرحيم . كتابي الى أمير المؤمنين ورأس علي بن عيسى بين يدي ، وخاتمه في اصبعي ، وجنده مصرّفون تحت أمري والسلام » .

(٢٢) كتب الوليد بن يزيد الى والي العراقين حين عتب عليه : « اني أراك تقدم في الطاعة رجلاً وتؤخر أخرى فاعتمد على أيتهما شئت والسلام » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

(٢٣) كتب جعفر بن يحيى الى عامل شُكي : « قد كثر شاكوك ، وقلّ شاكروك ، فاما عدلت واما اعتزلت » .

(٢٤) كتب احمد بن يوسف : « أما بعد فاني لا أعرف للمعروف طريقاً أوعر من طريقه اليك ، فالمعروف لديك ضائع ، والشكر عندك للجور ، وانما غايتك في المعروف أن تحتقره وفي وليه أن تكفره » .

(٢٥) وكتب احمد بن يوسف الى عامل قد أخّر المال : « قد استبطأك الاغفال ، وأبطرك الاهمال ، فما تُصحب قولك فعلاً ، ولا تتبع وعدك انجازاً ، وقد دافعت بمال نُجّم لزمك حمله ، حتى وجب عليه مثله ، فاحمل ثلاثة أنجم ليكون ما يتعجل منك ، أداءً ما أُخر عنك ان شاء الله » .

(٢٦) ووقّع الى عامل ظالم : « الحق طريق واضح لمن طلبه تهديه محجته ، ولا يخاف عثرته ، وتؤمن في السر مغبته ، فلا تستقيلن منه ولا تعدلن عنه ، فقد بالغت في مناصحتك ، فلا تحوجني الى معاودتك ، فليس بعد التقدمة اليك ، الا سطوة الانكار عليك » .

(٢٧) ووقع الى عامل ذكر انه قد أصلح ما تحت يده : « انا لك حامد فاستدم أحسن ما أنت عليه ، بدم لك أحسن ما عندي ، واعلم ان كل شيء لا يزاد فيه ينقص ، والنقصان وان قل يمحق الكثير ، كما يَنمى على الزيادة القليل » .

(٢٨) شُكي الى الحسن بن الفرات عامل قطربل واهماله عمل البزندات فوقّع اليه : « ينبغي أن تراعي العمل قبل الوقت للوقت وفي الوقت للوقت » .

(٢٩) وكتب الى عامله وقد أنفذ اليه رجلاً وقلده الخراج : « السيف تابع للقلم ، والقلم متبوع ، وقل سيف غلب القلم ، الا كان داعية الخراب » .

(٣٠) أهدى احمد بن يوسف كاتب المأمون أي وزيره ثوب وشي في يوم نوروز وكتب معه : « قد أهديت الى أمير المؤمنين ثوب وشي يصف نفسه والسلام » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(٣١) كتب ابو الهيذام زعيم القيسيين الى أهل قرية مزة كلب وقد قطع أهلها الماء عن أهل دمشق : « الى بني استها أهل مزة ، ليمسيني الماء أو لتصبحنكم الخيل » . فوافاهم الماء قبل أن يُعتموا .

(٣٢) كتب المرواني صاحب الأندلس الى نزار العبيدي صاحب مصر ، وكان هذا كتب اليه كتاباً يسبه فيه ويهجوه : « أما بعد فانك عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبناك والسلام » .

(٣٣) ومن تهكمات الجاحظ وموجزاته كتاب له في الوصاة : « كتابي اليك مع من لا أعرف ولا أوجب حقه ، فان قضيت حقه لم أحمدك ، وان رددته لم أذمك » .

(٣٤) وكتب أيضاً في هذا المعنى : « كتابي اليك سألني فيه من أخافه لمن لا أعرفه ، فافعل في أمره ما تراه والسلام » .

(٣٥) وكتب الى ابي حاتم السجستاني وبلغه عنه أنه نال منه : « أما بعد فلو كففت عنا من غَربك لكنا أهلاً لذلك منك » .

(٣٦) وكتب الى ابن الزيات : « نحن أعزك الله نسحر بالبيان ونموّه بالقول ، الناس ينظرون الى الحال ، ويقضون بالعيان ، فأثّر في أمرنا أثراً ينطق اذا سكتنا ، فان المدعي بغير بينة متعرض للتكذيب » .

(٣٧) كتب ابو فراس الحمداني الى سيف الدولة ، وقد شخص من حضرته الى منزله بمنبج كتاباً صدره : « كتابي أطال الله بقاء مولانا من المنزل وقد وردته ورود السالم الغانم مثقل البطن والظهر وفراً وشكراً » .

(٣٨) كتب عبد الملك الى الحجاج : « أما بعد فقد بلغني سرفك في سفك الدماء ، وتبذير الأموال في الباطل ، ومنعك الحق ، فلا يؤنسنك بي الا طاعتك ، ولا يوحشنك مني الا معصيتك » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(٣٩) فكتب اليه الحجاج : «أما بعد فقد وصل كتاب أمير المؤمنين ، وما قتلت الا فيه ، ولا أعطيت الا له ، فان رأى أمير المؤمنين أن يمضي لي سالفي ، ويأمر لي بما أحب في مستأنفي ، فعل ان شاء الله » .

(٤٠) وكتب عبد الملك الى بعض ولده وقد خالفه في شيء : «أما بعد فاني أمرتك بأمر فأتيت غيره ، ووصيتك بوصية فأبيت الا عصيته ، وخفت أنك بمنزلة الصبي الذي اذا أمر بشيء أباه ، واذا نُهي عن شيء أتاه ، فيحتال له فيما ينفعه بأن ينهى عنه ، وفيما يضره أن يؤمر به ، يا سوأتي لمن هذه حاله والسلام » .

***

هذه نماذج قليلة مما أثر عن البلغاء في الايجاز تخيرتها من عهود العرب يوم أصبحوا يتعلمون العربية وبلاغة القول على ما نتعلمها نحن في هذا العصر ، أي لم أستشهد بما نقل عن أهل الصدر الأول من الخلفاء الراشدين وكتابهم ، ومن كانت البلاغة سليقة فيهم ، والبلاغة متأصلة في كتاباتهم .

محمد كرد علي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net